نحو أبعاد معرفيّة لحوار الحضارات[1]

د.طه جابر العلواني

لعلَّ ما بدأ تداول الحديث فيه منذ سنوات، وصار تعبيرًا عن اهتمام بحوار الحضارات، يُمثِّل حالة بالغة التعبير عن عمق الأزمة التي يعيشها الفكر العربي والإسلامي، إضافة إلى النظم، وتتجلَّى هذه الأزمة في حالة التبعيَّة الظاهرة المتمثلة في نقل الأطر النظرية الفكرية وتبنِّيها بصورة أيديولوجية، أو في التبعية الكامنة التي تتمثَّل في فكر المقاربات والمقارنات في القرن التاسع عشر. وجوهر الأزمة أنَّ مَنْ يحدد الإشكالات، ويُثير القضايا، ويُحدد أجندة البحث والاهتمام، وأولويات التفكير، يقع خارج البيئة الفكرية والاجتماعية العربية والإسلامية، ويتحرك في إطار نموذج معرفي ومعطيات اجتماعية وتاريخية، ومصالح اقتصادية وسياسية، وقيم وأهداف مختلفة، إن لم تكن متعارضة ومتناقضة مع تلك التي يتحرك في إطارها الباحث والمفكر العربيُّ والمسلم.

وقد ارتبطت قضية الحوار بين الحضارات في طرحها الأخير بما أثير حول مقالة «صموئيل هنتجتون» عن نفس الموضوع، تلك التي كانت مقالة ثم تحولت إلى كتاب، وكُتب حول موضوعه بعد ذلك آلاف الصفحات، خاصة في الغرب، ومن ثَمَّ بدأ العقل المسلم والعربي ينشغل بهذه القضية، وبدأت تستحوذ على أولوياته دون أن يكون ذلك نابعًا من إحساس عربي إسلامي بضرورة اجتماعية، أو إشكالية فكرية، أو مصلحة سياسية للمجتمعات العربية والإسلامية، ودون أن ينبع الطرح من داخل هذه المجتمعات، بل جاء من خارجها وأُلقي عليها، وقد حاول هذا العقل أن يُقدِّم إجابات عن سؤال لم ينبع منه، ولم يمثل إشكالية ملحّة –على الأقل في المرحلة الراهنة– لهذه المجتمعات العربية الإسلامية إذا ما قيس بما يواجه هذه المجتمعات من قضايا وتحديات أخرى، حتى في أذهان أصحاب بعض المبادرات في الموضوع.

---

[1] ملخص ورقة د.طه جابر العلواني بعنوان: الأبعاد المعرفية لحورا الحضارات مقدمة إلى مؤتمر المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية تموز ١٩٩٥

وبغضِّ النظر عن موضع هذه القضية في إطار أولويات الاهتمام في الفكر العربي المعاصر، فإنه ينبغي التأكيد على أن الاهتمام بها حاليًا يعكس حالة من ردود الأفعال، وليس الأفعال، ويُعبِّر عن وضعية معينة تُصنع فيها الإشكالات خارج الحدود ويتم تصديرها، فبعد أن كانت تُقدَّم إلينا الحلول سابقة التجهيز، أصبحت الآن –ومع التطور الفكري في الوطن العربي– تقدم إلينا الإشكاليات، فننشغل بقضايا لم تكن نابعة من ذواتنا أو معبِّرة عن همومنا واهتماماتنا؛ ولذلك فإن التركيز على نقد محاولات الانشغال بهذه القضية لا ينبغي النظر إليه على أنه مصادرة على المطلوب، أو دعوة لغلق باب الحوار حول القضية، ولكنه فقط لإثارة الانتباه إلى قضية معرفية أكثر خطورة وأهمية ينبغي التركيز والتيقظ لها وإثارة الانتباه إليها.

وبعد هذه الملاحظة الأوليَّة يمكن تناول الموضوع من خلال النقاط التالية:

أولا: حوار الحضارات والحوار العربيّ الأوروبيّ:

في أعقاب حرب رمضان/أكتوبر ١٩٧٣م برزت فكرة الحوار العربيِّ الأوروبيِّ، وعقدت مجموعة من اللقاءات بين مفكرين وسياسيين عرب وأوروبيين، وصدرت عدة دراسات حول الموضوع، أهمها دراسة «روجيه غارودي» الذي دعا الغرب إلى التخلي عن غروره وغطرسته، كما دعا غارودي إلى إنشاء حوار مع الحضارات الأخرى، وبخاصة «حضارة القرآن»، التي لا شك – عند غارودي– أن الحوار معها سوف يعود على الغرب وحضارته بفوائد لا تحصى، أقلها تخليص العالم من مركزية الغرب وأبعاده الأحادية، وإخراج الغرب ذاته من سجن مركزيته إلى آفاق الثقافة العالمية. واتهم غارودي الغرب بأنه قد هدم حضارات أسمى من حضارته بكثير، خاصة في علاقة تلك الحضارات بالطبيعة والمجتمع والقضايا الإلهية، واتهم غرور الغرب العرقي الذي جعله يتوهم أن منابع حضارته تكمن في «الإغريقية والرومانية والنصرانية» وحدها، فلم يلتفت إلى أن هذه المنابع نفسها لم تكن لتوجد لولا البيئات الحضارية الخصبة في آسيا وأفريقيا، وأن الغرب أنجب الرأسمالية والاستعمار اللذين أضرَّا بالبشرية كلها، وأكد أن التفوق الغربي لم يكن تفوقًا ثقافيًّا، بل هو تفوق تقنيٌّ أدى إلى العدوان على الثقافات والحضارات الأخرى، وقد اعتبر غارودي أن «حوار الحضارات» المخرج الأساس للغرب لتجديد ذاته والخروج من أزماته؛ إذ إنَّ الحوار –من وجهة نظره– وليس الصراع هو الذي يمكن أن يولِّد مشروعًا كونيًّا يخلق نسيجًا ثقافيًّا واجتماعيًّا جديدًا

على مستوى العالم، والطريف في دعوة غارودي إلى حوار الحضارات أنَّه حمَّل الغرب ذاته مسؤولية تجديد نفسه وإعادة صناعة كل شيء فيه بحسب القواعد التي تنسجم مع الحضارات الأخرى. وتلته دراسة للعالم الدكتور حامد ربيع، ودراسة للدكتور أحمد صدقي الدجاني، وفي كليهما نجد دعوة مماثلة لدعوة غارودي من ناحية التأكيد على العرب بأنْ يُعيدوا تجديد ما بَلِيَ أو تقادم من حضارتهم، وأن يُحسنوا فهم الآخرين ليكونوا قادرين على إنشاء حوار حضاري جاد. وقد تركَّز الحوار في حينه -إضافة إلى ذلك- على قضايا سياسيَّة وحضاريَّة وفكريَّة متعددة، ولكنه لم يلقَ قدرًا يُلْحظ من الاهتمام إذا ما قيس بمقدار الزخم الذي أحاط مقولة صموئيل هنتجتون؛ وذلك لأن الظرف الأوروبي كان يقصد بالحوار أهدافًا سياسية واقتصادية، فتحول الحوار إلى صيغة تفاوضية ولم يعد حوارًا فكريًّا حضاريًّا.

كذلك تعددت لقاءات وندوات الحوار الإسلامي المسيحي أو الإسلامي الكاثوليكي، ولم يُحطها -أيضًا- زخم إعلامي أو اهتمام عربيٌّ، ولم تلقَ اهتمامًا يوازي أهميتها؛ ولعلَّ ذلك يعود بالأساس إلى عاملين أساسيين، أولهما: أنَّ الغرب الآن يطلق مقولة «حوار الحضارات» وهي تتضمن في جوهرها صدام وصراع الحضارات. وثانيهما: أن حوار الحضارات -في طرحه الأخير- يتَّسق مع المعطيات التاريخيَّة والسياسيَّة والاستراتيجيَّة للعالم الغربي بعد انتهاء الشيوعيَّة، وبعد تطهير البيت الأوروبي من الانقسام الأيديولوجي ما بين شيوعيَّة ورأسماليَّة، والتحول إلى محاولة صنع أعداء من خارج النسق الحضاري الغربي، خصوصًا في حوض حضارة الإسلام.

وهذا يؤكد -مرة أخرى- على أن القضية قد تمَّ طرحها -ليس فقط في غير أوانها بالنسبة لنا- وإنما أيضًا على غير وجهها وبغير مضمونها.

ثانيًا: حوار فكري أم تفاوض سياسي:

إنَّ مفهوم الحوار ينصرف إلى أحد معنيين، أولهما: يعني منهاجيَّة فلسفيَّة أساسها قرع الحجة بالحجة، واتخاذ موقف المعارضة المنطقيَّة بغية الكشف عن الحقيقة، وقد كان هذا طابع الدراسات التي أشرنا إليها. وعلى العكس، يُثير المعنى الثاني مفاهيم التفاوض السياسي الدولي التي تحكمها عناصر القوة وليس الحق، وتهدف إلى تحقيق المصلحة وليس الوصول إلى الحقيقة أو تجلياتها.

ومن خلال هذين المفهومين يمكن طرح تساؤل أساسي هو: أي حوار حضاري يطلب؟ أهو حوار يقصد الوصول إلى الحقيقة والانصياع لها بعد إقرارها؟ أم هو عمل يحقق مصالح معيَّنة ويفرضها بمنطق وحق القوة، وليس بقوة الحق؟ وهو الموقف الغربي الذي شجبه غارودي.

وهنا نجد أن من الضروري تحديد المقصد من الحوار وأهدافه، ومدى إمكانية تحقيق هذه الأهداف، ومدى استعداد وقدرة أطراف الحوار على الالتزام بنتيجة الحوار وتفعيلها؛ إذ لا يمكن أن يتم التحاور إلا بين أطراف على حدٍّ أدنى من النِدِّيَّة والتساوي في القوة والتكافؤ في الوزن، والاستعداد لقبول نتائج الحوار والالتزام بها. كذلك ينبغي تحديد أيّ النمطين من الحوار نريد؟ أهو حوار الحضارات باعتبارها حاضرًا وأنساقًا ثقافية وفكرية وعقائدية، وقيمًا ومعايير، ورؤية للعالم والإنسان والكون والحياة، وخالق هذا الكون وواهب الحياة؟ أم هو حوار الحضارات بمعنى التفاوض بين نظمٍ سياسية وتكتلات إقليمية أو أحلاف عسكرية؟ أو هو طلب للحوار من عاجز أو غير راغب بعمل شيء غير الجلوس على طاولة كلام؟

فالناظر في مفهوم الحضارات –كما يُعبِّر عنها معظم مفكري الغرب– يجد تداخلا بين الفكري الثقافي الديني من ناحية، وبين السياسي الاقتصادي الاستراتيجي من ناحية أخرى، بصورة تجعل من الأبعاد الأولى محددات للتمايز بين الحضارات، ولكنها ليست غايات أو مقاصد في ذاتها، بل هي معطيات، وتحدد الفواصل والغايات فقط التي ينبغي أن تنصبَّ أساسًا على الأبعاد الاقتصادية والسياسية الاستراتيجية. وكأن الحوار ينبغي أن يتم بين المختلفين حضاريًّا بالمعنى الثقافي الاعتقادي، بقصد تحقيق أهداف سياسية واقتصادية، وبهذا يتداخل الحوار مع التفاوض، ويتم اختزال مفهوم الحضارة في أبعاد السياسة الذرائعية، وطبقًا لهذا المفهوم ظهرت معظم الكتابات التي تعلقت بهذا الموضوع... إن لم يكن كلها.

ومن هنا فإنه لا بد من التأكيد على ما ينبغي أن نركِّز عليه من مفاهيم الحوار والحضارة بالمعنى الذي ينبثق من تقاليدنا الفكرية وأنساقنا المعرفية. أما التفاوض السياسيُّ فله مجاله البحثيُّ وخطابه الفكريّ الخاص به، وكذلك له رجاله والمتخصصون فيه.

ثالثًا: أهم القضايا الأساسية لحوار الحضارات:

حتى يمكن الحديث عن حوار حضارات بالمعنى الحقيقي، بعيدًا عن المصالح السياسيَّة لقوى أو لدول معيَّنة، وبعيدًا كذلك عن الانسياق وراء أطروحات قد لا تعبِّر عن حاجات إنسانية حقيقية، وحتى يمكن تأسيس هذا الحوار على قواعد معرفية مستقيمة، ينبغي التركيز على القضايا التالية:

إنَّ مفهوم الحوار في هذا السياق ينصرف إلى المعنى المتعلِّق بالتحاور والاختلاف حول الأفكار والقيم والمعايير، والأنماط المعرفية والمنهجية، وقواعد السلوك والثقافة، وإنَّ هدف هذا الحوار هو الوصول إلى الحقيقة واعتبارها ضالة ينبغي البحث والتفتيش عنها والانصياع لها عندما توجد وتعرف.

إنَّ الحضارة ينبغي أن يتم تحديدها في قواعدها وأسسها الفكرية الثابتة، التي تتضمن رؤية للعالم تحدد الموقف من الإله والإنسان والكون والحياة، بما يعنيه ذلك من تحديد الموقف من المسخرات في الكون والبيئة، وكذلك الموقف من «الآخر» المنضوي تحت حضارة أخرى.

إنَّ الاختلاف بين الحضارات سنة من سنن الله في الكون، وإنه لا ينبغي –ولا يمكن– أن يُزال، ومن ثَمَّ لا ينبغي السعي لتذويب الفوارق والاختلافات ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود:١١٩)، وإن هذا الاختلاف والتعدد والتنوع غايته التعارف والتعايش وتبادل المنافع وتحقيق العمران.

إنَّ لكل إنسان –ومن ثَمَّ لكل أمة وحضارة– حق الاختيار وحريته، ومن ثَمَّ ينبغي أن يحرَّر الإنسان من القهر والإجبار أو الإكراه أن تزييف الوعي أو الغزو الفكري أو غسيل الدماغ أو فرض النظم والأنساق الثقافية. ولا بد أن يؤسس الاختيار على اقتناع من حرية الاختيار؛ لا اختيارات القادة وحدهم، بل اختيارات الأمم نفسها.

إنَّ الفواصل الحقيقية بين الحضارات تكمن في النظم المعرفية، والأنساق العقائدية، ورؤى العالم والمبادئ الأساسية، وإن المنجزات المادية والنظم الإدارية هي نتيجة لذلك، وليست أساسًا له، ومن ثَمَّ ينبغي أن يتمَّ التحاور حول الأسس والفواصل الحقيقية، لا حول الثمرات والنتائج.

إنَّ التعاون والتعايش والمحاورة بين المختلفين هو وسيلة للجنس البشري، وليس التصارع والتقاتل، ومن ثَمَّ لا ينبغي النظر إلى «الآخر» على أنه عدو وينبغي قهره، ولكن على أنه إنسان

مُكَرَّم ينبغي التعامل معه بصورة تحقق حريته وكرامته، ولا بد أن تخضع للحوار مبادئ الأمم والحضارات التي تتنافى وهذه القواعد.

إنَّ رسالة الإسلام ليست قومية، ولا عنصرية، ولا إقليمية، ومن ثَمَّ لا ينبغي تجسيدها في قوم محصورين أو إقليم معين، ولكن لها تجليات متعددة ومتنوعة. فإذا نظر إلى الإسلام كحضارة تحاور الحضارات الأخرى فينبغي ألا تنحصر في الشرق الأوسط أو العالم العربيّ، ولكن لا بد أن تشمل جميع الجماعات والمجتمعات الإسلامية في أي مكان، وتكون قواعد الحوار ممثلة للجذور المعرفية والأغصان الثقافية التي قامت هذه الحضارة عليها.

إنَّ الإسلام لم يعرف في تاريخه مفاهيم التصادم الحضاري أو الحروب الحضارية -كما هي عادة الغرب- ولكنه اقتصر فقط على الأبعاد العسكرية التي تقف فقط عند حرب وقتال الجيوش. فلم يعرف تاريخ الإسلام المقاطعة الاقتصادية، أو حصار المجتمعات، أو تجويع الأطفال والنساء، أو منع الدواء عن المرضى، بل على العكس كان المسلمون طوال تاريخهم يقومون بتأمين طرق التجارة الموصلة لأوروبا. كذلك لم يعرف تاريخ الإسلام إبادة الحضارات أو الشعوب أو الثقافات، ولكنه عرف تكييف الثقافات المختلفة والحفاظ عليها وتطعيمها بالقيم العليا الحاكمة؛ أعني التوحيد والتزكية والعمران، ولذلك نجد التعدد في الملبس والمسكن والعمران صورة واضحة داخل حضارة الإسلام لا تكاد تجد لها مثيلا في أيّ حضارة أخرى، إذ المهم في حضارة الإسلام تحقيق وحدة العقيدة، وعنها تنبثق وحدة المشاعر والأفكار ثم المصالح.

إنَّ حوار الحضارات يعني الاعتراف بأن هناك حضارات متعددة، وليست حضارة عالمية واحدة نسخت الحضارات السابقة عليها، ومن ثَمَّ فلا بد من إعادة النظر في المناهج والنظريات والعلوم الناتجة عن حضارات عالمنا المعاصر، وليس فقط ما ينتج عن الحضارة العالمية المركزية -التي يزعم البعض أنها خلاصة التطور البشري ونهايته- وطالما أن الحضارات الأخرى لم تزل قائمة ينبغي أن تدخل في حوار مع الحضارة المركزية، فلا بد من التخلي عن تلك الصراعات الفكرية، مثل: «نهاية التاريخ»، سواء أجاءت من هيجل أو تلامذته، أو من فوكوياما. وكذلك لا بد من تصحيح مسار تلك العلوم؛ لأن تلك العلوم والمناهج والنظريات ستكون موضوعًا للتحاور، ومن ثَمَّ لا ينبغي الانطلاق من معطيات الحضارة الغربية كقاعدة أساسية مسلَّمة، وبذلك يكون من

الضروري تطوير العلوم والمناهج والنظريات الخاصة بحضارتنا الإسلامية النابعة من مصادرنا المعرفية المتمثلة في القرآن الكريم وبيانه من السنة المطهرة، ثم تطوير المناهج للتعامل مع تراثنا ومع العلوم النابعة من الحضارات الأخرى، حتى نستفيد منها دون الوقوع في خصوصياتها وتحيزاتها التي قد تتعاكس مع أنساقنا المعرفية والقيمية والعقائدية و: ﴿إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣)، فحوار الحضارات أكبر من نداء يُطلق، أو كلمة يُؤَذِّن بها من يشاء، أو شعار يُرفع، أو مؤتمر للكلام يُعقد، إنها –معرفيًّا– أعمق وأصعب وأشد من ذلك.

تلك هي أهم القضايا المعرفية التي ينبغي أن ينصرف الاهتمام إليها قبل الانخراط في حوار حقيقي للحضارات، وبدونها سيكون الأمر تفاوضًا سياسيًّا ينبغي أن يُوكل إلى رجال السياسة والدبلوماسية، وليس لأرباب القرطاس والقلم... والله أعلم.

د. طه جابر العلواني